التوبة

في القرآن الكريم

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

التوبة

في القرآن الكريم

أعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي



يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــــذرُ

واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ

فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــــدرُ

ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى *كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعـــــذِّرُ[1]

---

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".



{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}

﴿البقرة: ٢٢٢﴾

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ

نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيِّئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا﴾[النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْلَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: 70 – 71].

أمَّا بعدُ: "فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالَى، وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ فِي النَّارِ[1].

---

(1) أما بعدُ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وإنَّ أفضلَ الهديِ هديُ محمدٍ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ أتتْكم الساعةُ بغتةً – بُعِثتُ أنا والساعةُ هكذا – صبحَتْكم الساعةُ ومسَتْكم – أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه – من ترك مالًا فلأهلِه – ومن ترك دَيْنا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ – وأنا وليُّ المؤمنين.

الراوي: جابر بن عبدالله، المصدر: صحيح الجامع، الرقم: 1353.

التخريج: أخرجه النسائي في (المجتبى) (3/ 188)، وأحمد (3/ 310) باختلاف يسير.

وبعد:

فقدْ ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى التَّوبةَ فِي مواضعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ، بينَ الأمرِ بهَا، ومدحٍ لأهلهَا وتبشيرهمْ بجزيلِ ثوابهمْ.

فقالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}[التحريم: 8].

وقالَ سبحانهُ: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 160].

وقالَ جلَّ وعلَا: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة: 222].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}[النساء: 146].

وقالَ جل جلالهُ: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[الأنعام: 54].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[التوبة: 112].

وقالَ اللهُ تعالَى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[هود: 52].

وكل هذا يدلُّ على منَّة الله تعالى حيث منَّة علينا بالتوبة وبقبولها، وفي هذا المبحث سنتعرف إن شاء الله تعالى، على معنى التوبة، وفضلها، وشروط قبولها، وعظيم جزاء التائبين، عذاب المعرضين عن التوبة.

وكتب

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

{معنى التوبة}

التَّوبةُ لغةً:

توب: التّاءُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلّ علَى الرّجوعِ. يقالُ: تابَ منْ ذنبِهِ، أيْ رجعَ عنهُ، يتوبُ إلَى اللّهِ توبةً ومتابًا، فهوَ تائبٌ، والتّوبُ: التّوبةُ...[1].

وتابَ إلَى اللهِ توبًا وتوبةً ومتابًا وتابةً وتتوبةً: رجعَ عنْ المعصيةِ، وهوَ تائبٌ وتوّابٌ، وتابَ اللهُ عليهِ: وفّقهُ للتّوبةِ، أوْ رجعَ بِهِ منَ التّشديدِ إلَى التّخفيفِ، أوْ رجعَ عليهِ بفضلهِ وقبولهِ، وهوَ توّابٌ علَى عبادهِ[2].

والتَّائبُ يقالُ لباذلِ التَّوبةِ ولقابلِ التَّوبةِ؛ فالعبدُ تائبٌ إلَى اللهِ، واللهُ تائبٌ علَى عبدهِ.

والتّوّابُ: العبدُ الكثيرُ التَّوبةِ، وذلكَ بتركهِ كلّ وقتٍ بعضَ الذُّنوبِ علَى التَّرتيبِ حتَّى يصيرَ تاركًا لجميعهِ، وقدْ يُقالُ ذلكَ للهِ تعالَى؛ لكثرةِ قبولهِ توبةَ العبادِ حالًا بعدَ حالٍ[3].

التَّوبةُ اصطلاحًا:

التَّوبةُ فِي الشَّرعِ: الرُّجوعُ عنِ الأفعالِ المذمومةِ إلَى الممدوحةِ.

والتَّوبةُ النَّصوحُ: ألَّا يبقيَ علَى عملهِ أثرًا منَ المعصيةِ، سرًّا وجهرًا[4].

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.

(2) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٢.

(3) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٩.

(4) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.

قالَ الطبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: التَّوبةُ منَ العبدِ إلَى ربِّهِ: إنابتهُ إلَى طاعتهِ، وأوبتهُ إلَى مَا يرضيهِ بتركهِ مَا يسخطهُ منَ الأمورِ التِي كانَ عليهَا مقيمًا ممَّا يكرههُ ربُّهُ، فكذلكَ توبةُ اللهِ علَى عبدهِ هوَ أنْ يرزقهُ ذلكَ، ويتوبَ منْ غضبهِ عليهِ إلَى الرِّضَا عنهُ، ومنَ العقوبةِ إلَى العفوِ والصَّفحِ عنهُ[1].

وهذَا التَّعريفُ فِي الاصطلاحِ لَا يخرجُ عنْ معناهُ فِي اللُّغةِ.

التَّوبةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (توب) فِي القرآنِ (87) مرَّةً[2].

وجاءتِ التَّوبةُ فِي القرآنِ علَى وجهينِ[3]:

أحدهَا: النَّدمُ علَى فعلِ الشَّيءِ والرُّجوعِ عنهُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[الأعراف: 143]، يعنِي: ندمتُ ورجعتُ إليكَ.

والثَّانِي: التَّجاوزُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}[النساء: 27]، يعنِي: يتجاوزُ عنكمْ.

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧.

(2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٦– ١٥٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٦٩–٣٧١.

(3) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالتَّوبةِ:

الإنابةُ:

الإنابةُ لغةً:

تدورُ مادّةُ (ن وب) حولَ الرّجوعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: "النّونُ والواوُ والباءُ، كلمةٌ واحدةٌ تدلّ علَى اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليهِ"[1]، وقالَ ابنُ الأثيرِ: "يقالُ أنابَ ينيبُ إنابةً، فهوَ منيبٌ، إذَا أقبلَ ورجعَ"[2].

الإنابةُ اصطلاحًا:

الإنابةُ: إخراجُ القلبِ منْ ظلماتِ الشّبهاتِ. وقيلَ: الإنابةُ: الرّجوعُ منْ الكلّ إلَى منْ لهُ الكلّ، وقيلَ: الإنابةُ: الرّجوعُ منَ الغفلةِ إلَى الذّكرِ، ومنَ الوحشةِ إلَى الأنسِ، وقالَ الكفويّ: "الإنابةُ: الرّجوعُ عنْ كلّ شيءٍ إلَى اللّهَ تعالَى".

وقالَ ابنُ القيّمُ: "الإنابةُ: الإسراعُ إلَى مرضاةِ اللّهِ معَ الرّجوعِ إليهِ فِي كلّ وقتٍ، وإخلاصُ العملِ لهُ"[3].

وهذَا أصحُّ التَّعريفاتِ.

---

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٥٩٠.

(2) مقاييس اللغة.

(3) النهاية لابن الأثير.

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[هود: 75].

قالَ الطبريُّ: (منيب)، رَجَّاعٌ إلَى طاعتهِ[1].

الإيابُ والأَوَّابُ:

الإيابُ لغةً:

من: آبَ أَوْباً، وأَوْبَةً، وإياباً، ومآباً فهو آئب، وآيبَ، وأَوَّابٌ، وآب يؤوبُ: إيابًا وأيُّوبًا، آبَ إليهِ: رَجَعَ وعادَ، وآبَ إلَى اللهِ: رَجَعَ عنْ ذنبهِ وتابَ، والأوَّابُ: المسبِّحُ بلسانِ الحبشةِ.

وفِي قولهمْ "رجلٌ أوّابٌ" سبعةُ أقوالٍ:

1- الرَّاحمُ، 2 – والمسبِّحُ، 3 – والتَّائبُ الذِي يذنبُ ثمَّ يتوبُ ثمَّ يذنبُ ثمَّ يتوبُ، 4 – والمطيعُ الذِي يذكرُ ذنبهُ فِي الخلاءِ فيستغفرُ اللهَ منهُ، 5 – والرُّجوعُ الذِي يرجعُ إلَى التَّوبةِ، 6 – والطَّاعةِ، 7 – والتّوابُ.

وقيلَ هوَ كثيرُ الرُّجوعِ إلَى ربِّهِ ويمتثلُ أوامرهُ ويجتنبُ نواهيهِ.

والأوبُ: ضربٌ منَ الرُّجوعِ، وذلكَ أنَّ الأوبَ لَا يقالُ إلَّا فِي الحيوانِ الذِي لهُ إرادةٌ، والرُّجوعُ يقالُ فيهِ وفِي غيرهِ، يقالُ:آبَ أوبًا وإيابًا ومآبًا[2].

---

(1) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم.

(2) تفسير الطبري.

الأوَّابُ اصطلاحًا:

قالَ تعالَى: "اِصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاودَ ذَا الأَيْدِ"[ص: 17]، أيِ القوَّةُ فِي العبادةِ كانَ يصومُ يومًا ويفطرُ يومًا ويقومُ نصفَ اللَّيلِ وينامُ ثلثهُ ويقومُ سدسهُ "إِنَّهُ أوَّابٌ" رجّاعٌ إلَى مرضاةِ اللهِ[1].

(إِنَّهُ "أوَّابٌ") كثيرُ الرُّجوعِ إلَى مَا يرضِي اللهَ[2].

الاعتذارُ:

الاعتذارُ لغةً:

اِعتذرَ فلانٌ: صارَ ذَا عذرٍ، وإليهِ: طلبَ قبولَ معذرتهِ، ويقالُ: اعتذَرَ منْ ذنبهِ واعتذرَ عنْ فعلهِ: تنصَّلَ واحتجَّ لنفسهِ[3].

الاعتذارُ اصطلاحًا:

تحرِّي الإنسانَ مَا يمحُو بهِ أثرَ ذنبهِ، وذلكَ ثلاثة: الأوَّلُ: أنْ يقولَ: لمْ أفعلْ أوْ فعلتُ لأجلِ كذَا، فيذكرُ مَا يخرجهُ عنْ كونهِ ذنبًا، الثَّانِي: أنْ يقولَ: فعلتُ ولَا أعودُ ونحوَ ذلكَ، والثَّالثُ: هوَ التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ ولَا عكسٌ[4].

---

(1) معجم المعاني.

(2) تفسير الجلالين.

(3) تفسير الميسر.

(4) انظر: التوقيف، المناوي ص ٧٤.

الصِّلةُ بينَ التّوبةِ والاعتذارِ:

التَّوبةُ منَ الذَّنبِ الذِي لَا عذرَ فِي اقترافِهِ، والمعتذرُ يذكرُ أنَّ لهُ فِي مَا أتاهُ منَ المكروهِ عذرًا، ولوْ كانَ الاعتذارُ هوَ التّوبةُ لجازَ أنْ يقالَ: اعتذرْ إلَى اللهِ، كمَا يقالُ: تابَ إليهِ، وأصلُ العذرِ: إزالةُ الشّيءِ عنْ جهتهِ، أيْ: أزالَ مَا كانَ فِي نفسهِ عليهِ فِي الحقيقةِ أوْ فِي الظّاهرِ[1].

وأمَّا قولُ اللهِ تعالَى فِي كتابهِ: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[الأعراف: 164].

قالَ السَّعدِي فِي قولهِ تعالَى"قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ": فقالَ الواعظونَ: نعظهمْ وننهاهمْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أيْ: لنُعذرَ فيهمْ ... إلَى أنْ قالَ: وهذَا المقصودُ الأعظمُ منْ إنكارِ المنكرِ ليكونَ معذرةً، وإقامةِ حجَّةٍ علَى المأمورِ المنهيِّ[2].

فهذَا هوَ معنَى المعذرةِ إلَى اللهِ تعالَى وهوَ علَى مَا قالَ السَّعدِي إقامةُ الحجَّةِ عليهمْ فلمْ يعدْ لهمْ عذرٌ، معَ أداءِ الواجبِ تجاهَ اللهِ تعالَى وهوَ وعظهمْ لعلَّهمْ يرجعونَ.

النَّدمُ:

النّدمُ لغةً:

(ندم) علَى الأمرِ ندمًا وندامةً: أسفَ وكرههُ بعدمَا فعلهُ فهوَ نادمٌ[3].

---

(1) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.

(2) تفسير السعدي.

(3) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٩١١.

النّدمُ اصطلاحًا:

التّحسّرُ منْ تغيّرِ رأيٍ فِي أمرٍ فائتٍ[1].

الصِّلةُ بينَ النّدمِ والتّوبةِ:

التّوبةُ منَ النّدمِ؛ وذلكَ أنّكَ قدْ تندمُ علَى الشّيءِ ولَا تعتقدُ قبحهُ، ولَا تكونُ التّوبةُ منْ غيرِ قبحٍ، فكلُّ توبةٍ ندمٌ، وليسَ كلُّ ندمٍ توبةٌ[2]، فالنَّدمُ عامٌّ فِي فعلِ شيءٍ قبيحٍ أو غيرِ قبيحٍ، كمنْ رأَى دابَّتينِ فاشترَى إحداهَا ثمَّ ندمَ وقالَ ليْتنِي اشتريتُ الأخرَى، فهذَا شيءٌ غيرُ قبيحٍ ولَا يحتاجُ إلَى توبةٍ، والتَّوبةُ خاصَّةٌ بفعلِ شيءٍ قبيحٍ، كمنْ فعلَ ذنبًا فيندمُ عليهِ ويتوبُ، ولا يوجدُ شرطٌ فِي تلازمِ التَّوبةِ معَ النَّدمِ، بلِ الأصحُّ أنَّ النَّدمَ سابقٌ للتَّوبةِ، وإنْ توافقَا فِي الوقتِ كانَ خيرًا، ومنْ ناحيةٍ أخرَى يُشترطُ النَّدمُ فِي التَّوبةِ، حيثُ لَا توبةَ بَلا ندمٍ، ولَا تُشترطُ التَّوبةُ فِي النَّدمِ.

الاستغفارُ:

الاستغفارُ لغةً:

(استغفر): أيْ طلبَ المغفرةَ، واستغفرَ اللهَ ذنبهُ: طلبَ منهُ غفرهُ[3]، وفِي اللُّغةِ العربيَّةِ إذَا دخلتِ السِّينُ والتَّاءُ علَى الفعلِ أفادتْ معنَى الطَّلبِ.

وبهذَا، فإنّ معنَى الاستغفارِ فِي اللُّغةِ: طلبُ السّترِ، وطلبُ تركِ المؤاخذةِ علَى الذّنبِ.

---

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٦.

(2) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/٣٢٧٤.

الاستغفارُ اصطلاحًا:

طلبُ سترِ الذَّنبِ بالعفوِ عنهُ، وعدمِ العقوبةِ عليهِ[1].

الصِّلةُ بينَ التَّوبةِ والاستغفارِ:

قالَ ابنُ القيِّمِ: الاستغفارُ يتضمَّنُ التَّوبةُ، والتَّوبةُ تتضمَّنُ الاستغفارَ، وكلٌّ منهمَا يدخلُ فِي مسمَّى الآخرِ عندَ الإطلاقِ، وأمَّا عندَ اقترانِ إحدَى اللَّفظتينِ بالأخرَى،

فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرٍّ مَا مضَى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقايةِ شرٍّ مَا يخافهُ فِي المستقبلِ منْ سيِّئاتِ أعمالهِ[2].

العفوُ لغةً:

العفوُ يُطلقُ علَى معنيينِ أصليَّينِ: أحدهمَا: تركُ الشَّيءِ، والآخرُ: طلبهُ.

فمنَ المعنَى الأوَّلِ: عفوُ اللهِ تعالَى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركهُ إيَّاهمْ فلَا يعاقبهمْ فضلًا منهُ.

ومنَ المعنَى الثَّانِي: قولُ: اعتفيتُ فلانًا، إذَا طلبتُ معروفهُ وفضلهُ، فهوَ القصدُ لتناولِ الشَّيءِ[3].

والعفوُ أيضًا: خيارُ الشَّيءِ وأجودهُ، والعفوُ منَ الماءِ: مَا فضلَ عنِ الشَّاربةِ وأُخذَ بلَا كلفةٍ ولَا مزاحمةٍ، العفوُ منَ البلادِ: مَا لَا أثرَ لأحدٍ فيهَا بملكٍ[4].

فهذانِ همَا المعنيانِ الأصليَّانِ للعفوِ، وعليهمَا يدورُ جميعُ معانِي العفوِ، فيفسَّرُ فِي كلِّ مقامٍ بمَا يناسبهُ.

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨٥/٣، روح المعاني، الألوسي ٢٠٧/١١.

(2) مدارج السالكين ٣٠٨/١.

(3) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥٦/٤، جمهرة اللغة، ابن دريد ٩٣٨/٢.

(4) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧٢/١٥، الصحاح، الجوهري ٢٤٣١/٦، تاج العروس، الزبيدي ٦٩/٣٩.

العفوُ اصطلاحًا:

العفوُ اصطلاحًا: التَّجاوزُ عنِ الذَّنبِ وتركُ العقابِ[1].

وقالَ الرَّاغبُ: العفوُ هوُ التَّجافِي عنِ الذَّنبِ[2].

والعفوُ: كفُّ الضَّررِ معَ القدرةِ عليهِ، وكلُّ منِ استحقَّ عقوبةً فتركهَا، فقدْ عفَا[3].

فالمعنَى الاصطلاحِي متفِّقٌ معَ المعنَى الأوَّلِ منَ المعنيينِ اللُّغويينِ للعفوِ، وهوَ: تركُ الشَّيءِ، أي: عفوُ اللهِ تعالَى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركُهُ إيَّاهمْ فلَا يعاقبهمْ فضلًا منهُ.

الصِّلةُ بينَ التَّوبةِ والعفوِ:

العفوُ هوَ الحلقةُ الثَّالثةُ منْ سلسلةِ الخيرِ، وهيَ نتاجُ الحلقتينِ الأولتينِ، فالمذنبُ يتوبُ أوَّلًا، ثمَّ يستغفرُ، ثمَّ ينالُ العفوَ.

---

(1) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦/١٤٣.

(2) المفردات، الراغب ص ٥٧٤.

(3) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

{شروطُ التَّوبةِ}

شروطُ التَّوبةِ كمَا ذكرهَا العلماءُ هيَ:

1) أن يُقلعَ عنِ الذَّنبِ.

2) أنْ يندمَ علَى مَا قدْ مضَى.

3) أنْ يعزمَ فِي المستقبلِ علَى ألَّا يعودَ إليهِ.

4) وإذَا كانَ الأمرُ يتعلَّقُ بحقوقِ الآدميينَ، سواءً بأموالهِمْ، أوْ أعراضهِمْ، أوْ أبدانهِمْ، فعليهِ أنْ يطلبَ العفوَ ممَّنْ لهُ عليهِ حقٌّ، أو يؤدِّي الحقوقَ إلىَ أهلهَا.

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والظُّلمُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ لهُ دواوينُ ثلاثةٌ: ديوانٌ لَا يغفرُ اللهُ منهُ شيئًا، وهوَ الشِّركُ بهِ، فإنَّ اللهَ لَا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ، وديوانٌ لَا يتركُ اللهُ تعالَى منهُ شيئًا، وهوَ ظلمُ العبادِ بعضهِمْ بعضًا، فإنَّ اللهَ تعالَى يستوفيهِ كلَّهُ، وديوانٌ لَا يعبأُ اللهُ بهِ شيئًا، وهوَ ظلمُ العبدِ نفسهُ بينهُ وبينَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّ هذَا الدِّيوانَ أخفُّ الدَّواوينِ وأسرعهَا محوًا، فإنَّهُ يُمحَى بالتَّوبةِ والاستغفارِ، والحسناتِ الماحيةِ، والمصائبِ المكفِّرةِ، ونحوِ ذلكَ، بخلافِ ديوانِ الشِّركِ؛ فإنَّهُ لَا يُمحَى إلَّا بالتَّوحيدِ، وديوانٌ المظالمِ لَا يُمحَى إلَّا بالخروجِ منهَا إلَى أربابهَا واستحلالهِمْ منهَا[1].

---

(1) ((الوابل الصيب)) (24/1).

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ كانتْ عندهُ مظلمةٌ لأخيهِ منْ عرضهِ، أوْ منْ شيءٍ، فليتحلَّلْهُ منهُ اليومَ، قبلَ أنْ لَا يكونَ دينارٌ ولَا درهمٌ، إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أُخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ حسناتٌ، أُخذَ منْ سيِّئاتِ صاحبهِ فحملَ عليهِ"[1].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "لتؤدنَّ الحقوقَ إلَى أهلهَا يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادُ للشَّاةِ الجلحاءِ منَ الشَّاةِ القرناءِ"[2].

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ أنيسٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "يحشرُ العبادُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غرلًا بهمًا[3]، فيناديهمْ منادٍ بصوتٍ يسمعهُ مَنْ بعُدَ كمَا يسمعهُ مَنْ قرُبَ: أنَا الملكُ، أنَا الديَّانُ، لَا ينبغِي لأحدٍ منْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ وأحدٍ منْ أهلِ النَّارِ يطلبهُ بمظلمةٍ، حتَّى اللَّطمةُ فمَا فوقهَا، ولَا ينبغِي لأحدٍ منْ أهلِ النَّارِ أنْ يدخلَ النَّارَ وعندهُ مظلمةٌ، حتَّى اللَّطمةُ فمَا فوقهَا {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[الكهف: 49]، قلنَا: يَا رسولَ اللهِ، كيفَ وإنَّمَا نأتِي حفاةً عراةً غرلًا [4] بهمًا؟ قالَ: بالحسناتِ والسيِّئاتِ جزاءً وفاقًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"[5].

(1) رواه البخاري (6534) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه مسلم (2582).

(3) البهم جمع بهيم، وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه، يعني ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التي تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج وغير ذلك. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (167/1).

(4) الغرل: جمع الأغرل، وهو الأقلف. انظر ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (362/3).

(5) رواه أحمد (495/3) (16085)، والحاكم (475/2)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (265/8). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (218/4)، والعراقي في تخريجه للإحياء (283/5)، والهيثمي في ((المجمع)) (354/10)، وحسنه ابن القيم كما في ((مختصر الصواعق المرسلة)) (489).

وقالَ أبُو الزِّنادِ: كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يردُّ المظالمَ إلَى أهلهَا بغيرِ البيِّنةِ القاطعةِ، كانَ يكتفِي باليسيرِ، إذَا عرفَ وجهَ مَظْلِمةِ الرَّجُلِ ردَّهَا عليهِ، ولمْ يكلِّفْهُ تحقيقَ البيِّنةِ، لمَا يعرفُ منْ غشمِ الوُلَّاةِ قبلهُ علَى النَّاسِ، ولقدْ أنفدَ بيتَ مالَ العراقِ فِي ردِّ المظالمِ حتَّى حُمِلَ إليهَا منَ الشَّامِ(1).

هذَا فِي شروط التَّوبةِ، وأمَّا فِي مَا يخصُّ قبولَ اللهِ تعالَى لتوبةِ عبدهِ، فعدُّوا لهَا شروطًا ملازمةً لمَا سبقَ، نذكرُ منهَا:

شروطُ قبولِ التَّوبةِ:

قالَ تعالَى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء: 17].

ذكرتِ الآيةُ لقبولِ التَّوبةِ قيدينِ: (بِجَهَالَةٍ) و(مِنْ قَرِيبٍ).

والجهالةُ تُطلقُ علَى سوءِ المعاملةِ، وعلَى الإقدامِ علَى العملِ دونَ رويَّةٍ، وهيَ مَا قابَلَ الحلمَ؛ ولذلكَ تُطلقُ الجهالةُ علَى الظلمِ، قالَ عمرُو بنُ كلثومٍ:

ألَا لَا يجهلنَّ أحدٌ علينَا * فنجهلُ فوقَ جهلِ الجاهلينَا(2).

وقالَ تعالَى حكايةً عنْ يوسفَ: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[يوسف: 33].

---

(1) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص 241)

(2) البيت من معلقته المشهورة. انظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.

والمرادُ هنَا ظلمُ النَّفسِ[1]، وعلَى ذلكَ فالجهالةُ: سفاهةٌ وقلَّةُ تحصيلٍ أدَّى إلَى المعصيةِ[2].

وقولهُ: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إلَى وقتِ الذَّنبِ، ومدَّةِ الحياةِ كلِّهَا.

وجمهورُ المفسِّرينَ علَى أنَّ التَّوبةَ تُبلُ قبلَ المعاينةِ، قالَ عكرمةُ: قبلَ الموتِ، وقالَ الضحَّاكُ: قبلَ معاينةِ ملكِ الموتِ، وقالَ السدِّي والكلبِي: أنْ يتوبَ فِي صحَّتهِ قبلَ مرضِ موتهِ[3]، وهذَا مرجوحٌ.

فقدْ روَى التِّرمذِي بسندهِ عنِ ابنِ عمرَ، عنْ النّبيّ ﷺ قالَ: "إنّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ مَا لمْ يغرغرْ"[4].

وإنَّماَ صحَّتِ التَّوبةُ منَ العبدِ فِي هذَا الوقتِ؛ لأنَّ الرَّجاءَ فيهِ باقٍ، ويصحُّ منهُ النَّدمُ، والعزمُ علَى تركِ الفعلِ[5].

ولَا خُلْفَ فِي وعدهِ سبحانهِ وتعالَى علَى قبولِ توبةِ العبدِ ﴿إذَا كانتْ بشروطِ قبولهَا، وهيَ أربعةٌ: النَّدمُ بالقلبِ، وتركُ المعصيةِ فِي الحالِ، والعزمِ علَى ألَّا يعودَ إلَى مثلهَا، وأنْ يكونَ ذلكَ حياءً وخوفًا منَ اللهِ تعالَى لَا منْ غيرهِ﴾ وقدْ قيلَ منْ شروطهَا: الاعترافُ بالذَّنبِ وكثرةُ الاستغفارِ[6].

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٧٨.

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.

(3) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٩٥.

(4) أخرجه الترمذي في سننه رقم ٣٥٣٧. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٠٣.

(5) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/٢٥.

(6) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٩١.

وإنْ أتَى المذنبُ بشروطِ التَّوبةِ وشروطِ قبولهَا، ثمَّ عادَ إلَى الذَّنبِ، وجبَ عليهِ العودُ إلَى التَّوبةِ، وإنْ تابَ أوَّلًا حياءً منَ المسلمينَ لَا منَ اللهِ تعالَى فليستمرَّ فِي ذلكَ حتَّى يأذنَ اللهُ فِي توبتهِ، ثمَّ إذَا صفتْ سريرتهُ وتابَ اللهُ عليهِ، قُبلتْ توبتهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى، وفِي وصفٍ قريبٍ منْ ذلكَ قالُوا: طلبنَا العلمَ لغيرِ اللهِ فأبَى أنْ يكونَ إلَّا للهِ[1] ومنْ أرادَ التَّوبةَ ولمْ يستطعِ الاقلاعَ عنِ الذَّنبِ يستمرُّ في طلبِ التَّوبةِ ولَا ييأسْ حتَّى يأذنَ اللهُ فِي توبتهِ.

عدمُ قبولِ التَّوبةِ:

أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لَا يكونُ قبولُ التَّوبةِ منَ الذينَ يصرّونَ علَى ارتكابِ المعاصِي، ولَا يرجعونَ إلَى ربِّهمْ إلَى أنْ تأتيهمْ سكراتُ الموتِ، ولَا تُقبلُ توبةُ الذينَ يموتونَ وهمْ كافرونَ.

قالَ تعالَى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[النساء: 18].

يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) منْ أهلِ الإصرارِ علَى معاصِي اللهِ، (حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) يقولُ: إذَا حشرجَ أحدهمْ بنفسهِ، وعاينَ ملائكةَ ربِّهِ قدْ أقبلُوا إليهِ لقبضِ روحهِ قالَ: وقدْ غلبَ

(1) المجموع شرح المهذب.

علَى نفسهِ، وحيلَ بينهُ وبينَ فهمهِ بشغلهِ بكربِ حشرجتهِ وغرغرتهِ: (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)، يقولُ: فليسَ لهذَا عندَ اللهِ تباركَ وتعالَى توبةٌ؛ لأنَّهُ قالَ مَا قالَ فِي غيرِ حالِ توبةٍ(1).

وسنُّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ العبدَ إذَا عاينَ الانتقالَ الَى اللهِ تعالَى لمْ ينفعهُ توبةٌ ولَا إقلاعٌ(2)؛ وذلكَ أنَّ التَّوبةَ فِي هذهِ الحالةِ توبةُ المضطرِّ، لجّتْ بهِ الغوايةُ، وأحاطتْ بهِ الخطيئةُ، توبةُ الذِي يتوبُ لأنَّهُ لمْ يعدْ لديهِ متَّسعٌ لارتكابِ الذُّنوبِ، ولَا فسحةٌ لمقارفةِ الخطيئةِ، وهذهِ لَا يقبلهَا اللهُ؛ لأنَّهَا لَا تنشيءُ صلاحًا فِي القلبِ ولَا صلاحًا فِي الحياةِ، ولَا تدلُّ علَى تبدُّلٍ فِي الطَّبعِ ولَا تغيُّرٍ فِي الاتِّجاهِ.

(وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)، وهؤلاءِ قدْ قطعُوا كلَّ مَا بينهمْ وبينَ التَّوبةِ منْ وشيجةٍ، وضيّعُوا كلَّ مَا بينهمْ وبينَ المغفرةِ منْ فرصةٍ(3).

وأخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لَا يقبلُ التَّوبةَ عندمَا يأتِي بعضُ أشراطِ السَّاعةِ وعلاماتهَا الدَّالةِ علَى مجيئهَا، وهيَ طلوعُ الشَّمسِ منْ مغربهَا، قالَ تعالَى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}[الأنعام: 158].

(1) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥١٦.

(2) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٣.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤

والحكمةُ فِي هذَا ظاهرةٌ، فإنَّهُ إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: "فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[غافر: 84 – 85][1].

قالَ جمهورُ أهلِ التَّأويلِ: الآيةُ التِي لَا تنفعُ التَّوبةَ منَ الشِّركِ أوْ منَ المعاصِي بعدهَا، هيَ طلوعُ الشَّمسِ منَ المغربِ[2].

وقدْ روَى البخاريُّ بسندهِ، عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "لَا تقومُ السّاعةُ حتّى تطلعَ الشّمسُ منْ مغربهَا، فإذَا رآهَا النّاسُ آمنَ منْ عليهَا، فذاكَ حينَ (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ)"[3].

ونخرجُ بهذَا أنَّ شروطَ التوبةِ معَ قبولهَا:

1) النَّدمُ منَ القلبِ، ومنهُ العزمُ علَى عدمِ العودةِ.

2) الاستغفارُ لإدراكِ عفوِ اللهِ تعالَى.

3) أنْ تكونَ التَّوبةُ قبلَ الغرغرةِ وقبلَ أشراطَ السَّاعةِ.

---

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨١.

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٧.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب لا ينفع نفس إيمانها، ١٤/ ١٧٤، رقم ٤٢٦٩.

{اقترانُ التَّوبةِ بالإصلاحِ والاستغفارِ}

أوَّلًا: اقترانُ التَّوبةِ بالإصلاحِ:

قرنَ اللهُ سبحانهُ بينَ التَّوبةِ والإصلاحِ فِي مواضعَ منْ كتابهِ، منهَا: قوله تعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 160].

وقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[النور: 5].

فالآياتُ تدلُّ دلالةً واضحةً علَى أنَّهُ ليسَ المقصودُ بالتَّوبةِ تركُ القبيحِ فحسبُ، بلْ يجبُ فعلُ الحسنِ، وهوَ الإصلاحُ.

ومنْ أجلِ ذلكَ شرطَ سبحانهُ وتعالَى فِي توبةِ أهلِ الكتابِ الذينَ كانَ ذنبهمْ كتمانُ مَا أنزلَ اللهُ منَ البيِّناتِ والهدَى؛ ليضلُّوا النَّاسَ بذلكَ، شرطَ أنْ يُصلحُوا العملَ فِي نفوسهمْ، ويبيّنُوا للنَّاسِ مَا كانُوا يكتمونهمْ إيَّاهُ، فقالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 159 – 160].

وشرطَ سبحانهُ فِي توبةِ المنافقينَ الذينَ كانَ ذنبهمْ إفسادُ قلوبِ ضعفاءِ المؤمنينَ، وتحيُّزهمْ واعتصامهمْ باليهودِ والمشركينَ أعداءِ الرَّسولِ ﷺ، وإظهارهمُ الإسلامَ رياءً وسمعةً: أنْ يصلحُوا بدلَ إفسادهمْ، وأنْ يعتصمُوا باللهِ بدلَ اعتصامهمْ بالكفَّارِ منْ أهلِ الكتابِ والمشركينَ، وأنْ يخلصُوا دينهمْ للهِ بدلَ إظهارهمْ رياءً وسمعةً، فهكذَا

تفهمُ شرائطَ التَّوبةِ وحقيقتهَا[1]، كمَا قالَ تعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: 146].

وتجدرُ الإشارةُ هنَا إلَى أنَّ هناكَ أعمالًا طلبَ اللهُ فيهَا التَّوبةَ فقطْ، وأعمالًا طلبَ فيهَا التَّوبةَ والإصلاحَ، وأعمالًا طلبَ فيهَا التَّوبةَ والإصلاحَ والبيانَ.

ثانيًا: اقترانُ التَّوبةِ بالاستغفارِ:

قرنَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى بينَ التَّوبةِ والاستغفارِ علَى ألسنةِ رسلهِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 3].

وقالَ هودُ عليهِ السَّلامُ: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 52].

وقالَ صالحٌ عليهِ السَّلامُ: {فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 61].

وقالَ شعيبٌ عليهِ السَّلامُ: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 90].

فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرّ مَا مضَى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقايةِ شرِّ مَا يخافهُ فِي المستقبلِ منَ سيِّئاتِ أعمالهِ[2].

---

(1) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٧.

(2) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٣٤٥

وقيلَ فِي العلاقةِ بينهمَا: التَّوبةُ: هيَ الرُّجوعُ إلىَ اللهِ ممَّا يكرهُهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلَى مَا يحبُّهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا؛ ندمًا علَى مَا مضَى، وتركًا فِي الحالِ، وعزمًا علَى أنْ لَا يعودَ، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ منَ اللهِ، فإنِ اقترنَ بِهِ توبةٌ فهوَ الاستغفارُ الكاملُ الذِي رتّبتَ عليهِ المغفرةَ، وإنْ لمْ تقترنْ بهِ التَّوبةُ فهوَ دعاءٌ منَ العبدِ لربِّهِ أنْ يغفرَ لهُ، فقدْ يُجابُ دعاؤهُ وقدْ لَا يُجابُ، وهوَ بنفسهِ عبادةٌ منَ العباداتِ، فهوَ دعاءُ عبادةٍ، ودعاءُ مسألةٍ[1].

{اسمُ اللهِ التوَّابِ}

التوَّابُ منْ أسماءِ اللهِ تعالَى فقدِ اشتقّ اللهُ سبحانهُ وتعالَى منَ التَّوبةِ اسمًا لهُ، وهوَ التوّاب؛ دلالةً علَى عظمِ التَّوبةِ وفضلهَا:

أولًا: معنَى اسمِ اللهِ التوَّابِ:

قالَ الطبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤهُ هوَ التوّابُ علَى منْ تابَ إليهِ منْ عبادهِ المذنبينَ منْ ذنوبهِ، التَّاركِ مجازاتهِ بإنابتهِ إلَى طاعتهِ بعدَ معصيتهِ بمَا سلفَ منْ ذنبهِ[2].

وجاءَ (توّاب) علَى أبنيةِ المبالغةِ لقبولهِ توبةَ عبادهِ، وتكريرُ الفعلِ منهمْ دفعةً بعدَ دفعةٍ، وواحدًا بعدَ واحدٍ علَى طولِ الزَّمانِ، وقبولهِ عزَّ وجلَّ ممَّنْ يشاءُ أنْ يقبلَ منهُ؛ فلذلكَ جاءَ علَى أبنيةِ المبالغةِ، فالعبدُ يتوبُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ويقلعُ عنْ ذنوبهِ، واللهُ يقبلُ توبتهُ، فالعبدُ تائبٌ واللهُ توّابٌ[3].

(1) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ٢/ ٣٦٤.
(2) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧
(3) اشتقاق أسماء الله، ص ٦٢.

وقالَ ابنُ القيِّمِ فِي نونيَّتهِ:

وكذلكَ التوّابُ منْ أوصافهِ * والتوّابُ فِي أوصافهِ نوعانِ

إذنٌ بتوبةِ عبدهِ وقبولـهَا * بعدَ المتابِ بمنَّةِ المنَّـــانِ[1]

ويقولُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فهوَ التَّائبُ علىَ التَّائبينَ أوَّلًا بتوفيقهمْ للتَّوبةِ، والإقبالِ بقلوبهمْ إليهِ، وهوَ التَّائبُ عليهمْ بعدَ توبتهمْ قبولًا لهَا، وعفوًا عنْ خطاياهمْ[2].

ثانيًا: الأسماءُ المقترنةُ باسمهِ تعالَى التوّابُ:

وردَ اسمُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى (التَّوَّابُ) فِي إحدَى عشرةَ آيةً فِي القرآنِ الكريمِ[3]:

1) اسمُ اللهِ الرَّحيمِ:

اقترنَ اسمُ اللهِ التَّوابُ باسمِ اللهِ الرَّحيمِ فِي تسعِ آياتِ، منهَا:

قولهُ تعالَى: {فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 37].

(1) الكافية الشافية، ابن القيم ص٢٠٩.

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.

(3) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٧٠.

وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: 104].

وقوله تعالى: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[الحجرات: 12].

ومناسبةُ هذَا الاقترانِ: أنَّ توبةَ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ وتوفيقهمْ إليهَا ثمَّ قبولهَا منهمْ، هوَ منْ آثارِ رحمتهِ تعالَى وبرِّهِ وإحسانهِ.

قالَ الطَّبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: {إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: 118]: إنَّ اللهَ هوَ الوهَّابُ لعبادهِ الإنابةَ إلَى طاعتهِ، الموفِّقِ منْ أحبَّ توفيقهُ منهمْ لمَا يرضيهِ عنهُ، الرَّحيمِ بهمْ أنْ يعاقبهمْ بعدَ التَّوبةِ، أوْ يخذلَ منْ أرادَ منهمْ التَّوبةَ والإنابةَ ولَا يتوبُ عليهِ[1].

وقالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: (إِنَّ اللهَ هوَ التَّوَّابُ) أيْ: كثيرُ التَّوبةِ والعفوِ، والغفرانِ عنِ الزلَّاتِ والعصيانِ، (الرَّحِيمُ) وصفهُ الرَّحمةُ العظيمةُ التِي لَا تزالُ تنزلُ علَى العبادِ فِي كلِّ وقتٍ وحينٍ، فِي جميعِ اللَّحظاتِ، مَا تقومُ بهِ أمورهمُ الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ[2].

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.

(2) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٤.

2) اسمُ اللهِ الحكيمِ:

واقترنَ اسمُ اللهِ التوَّابِ باسمهِ تعالَى الحكيمِ مرَّةً واحدةً، فِي قولهِ تعالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}[النور: 10].

فهوَ (توَّابٌ) يقبلُ العاصينَ منكمْ، ويردّهمْ إلَى دائرةِ المؤمنينَ الصَّالحينَ، إذَا همْ تابُوا وأصلحُوا، وهوَ سبحانهُ: (حكيمٌ) فيمَا حدّ منْ حدودٍ ورصدٍ منْ عقوباتٍ، للمعتدينَ علَى حدودهِ[1].

وفِي ذكرِ وصفِ (حكيمٍ) هنَا معَ وصفِ (توَّابٍ) إشارةٌ إلَى أنَّ فِي هذهِ التَّوبةِ حكمةٌ، وهيَ استصلاحُ النَّاسِ[2].

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٢٦.

(2) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٣٥.

{ثمراتُ التَّوبةِ وعاقبةُ الإعراضِ عنهَا}

للتَّوبةِ إلَى اللهِ تعالَى ثمراتٌ جزيلةٌ، وللمعرضينَ عنهَا عواقبُ وخيمةٌ، نذكرُ منهَا مَا يلِي:

أوَّلًا: ثمراتُ التَّوبةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ ثمرات للتَّوبةِ؛ لحضِّ العبادِ علَى المسارعةِ إليهَا، منهَا:

1) الفلاحُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ:

علّقَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى الفلاحَ علَى التَّوبةِ، فقالَ تعالَى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[النور: 31] فمنْ سُبلِ الفلاحِ التَّوبةُ، وهيَ الرُّجوعُ ممَّا يكرههُ اللهُ، ظاهرًا وباطنًا، إلَى مَا يحبُّهُ ظاهرًا وباطنًا، ودلَّ هذَا أنَّ كلَّ مؤمنٍ محتاجٌ إلَى التَّوبةِ؛ لأنَّ اللهَ خاطبَ المؤمنينَ جميعًا، وفيهِ الحثُّ علَى الإخلاصِ بالتَّوبةِ فِي قولهِ: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) أي: لَا لمقصدِ غيرِ وجههِ، منْ سلامةٍ منْ آفاتِ الدُّنيَا، أوْ رياءٍ وسمعةٍ، أوْ نحوِ ذلكَ منَ المقاصدِ الفاسدةِ[1].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٦٦.

2) دعاءُ حملةِ العرشِ للتَّائبينَ:

ذكرَ سبحانهُ وتعالَى دعاءَ الذينَ يحملونَ عرشَ الرَّحمنِ منَ الملائكةِ ومنْ حولَ العرشِ ممَّنْ يحفُّ بهِ منهمْ، بالمغفرةِ للذينَ تابُوا منَ الشِّركِ والمعاصِي.

قالَ تعالَى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}[غافر: 7].

أي: فاصفحْ عنِ المسيئينَ إذَا تابُوا وأنابُوا، وأقلعُوا عمَّا كانُوا فيهِ، واتَّبعُوا مَا أمرتهمْ بهِ منْ فعلِ الخيراتِ وتركِ المنكراتِ[1].

3) المتاعُ الحسنُ:

ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ هودًا عليهِ السَّلامُ دعَا قومهُ أنْ يسألُوا اللهَ أنْ يغفرَ لهمْ ذنوبهمْ، ثمَّ يرجعُوا إليهِ نادمينَ يمتعّهمْ فِي دنياهمْ متاعًا حسنًا بالحياةِ الطيِّبةِ فيهَا، إلَى أنْ يحينَ أجلهمْ.

قالَ تعالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}[هود: 3].

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١٩.

أيِ: استغفرُوا ربَّكمْ، ثمَّ توبُوا إليهِ، فإنَّكمْ إذَا فعلتمْ ذلكَ بسطَ عليكمْ منَ الدُّنيَا، ورزقكمْ منْ زينتهَا، وأنسأَ لكمْ فِي آجالكمْ إلَى الوقتِ الذِي قضَى فيهِ عليكمْ الموتَ[1].

وهذهِ القاعدةُ التِي يقرِّرهَا القرآنُ فِي مواضعَ متفرِّقةٍ، قاعدةٌ صحيحةٌ تقومُ علَى أسبابهَا منْ وعدِ اللهِ، ومنْ سنَّةِ الحياةِ، كمَا أنَّ الواقعَ العمليَّ يشهدُ بتحقُّقهَا علَى مدارِ القرونِ. والحديثِ فِي هذهِ القاعدةِ عنِ الأممِ لَا عنِ الأفرادِ، ومَا منْ أمَّةٍ قامَ فيهَا شرعُ اللهِ، واتَّجهتِ اتِّجاهًا حقيقيًا للهِ بالعملِ الصَّالحِ والاستغفارِ المنبيءِ عنْ خشيةِ اللهِ، مَا منْ أمَّةٍ اتَّقتِ اللهَ وعبدتهُ وأقامتْ شريعتهُ، فحقَّقتِ العدلَ والأمنَ للنَّاسِ جميعًا، إلَّا فاضتْ فيهَا الخيراتُ، ومكّنَ اللهُ لهَا فِي الأرضِ، واستخلفهَا فيهَا بالعمرانِ وبالصَّلاحِ سواءً[2].

ووصفَ المتاعَ "بالحسنِ" إنَّمَا هوَ لطيبِ عيشِ المؤمنِ برجائهِ فِي اللهِ عزَّ وجلَّ وفِي ثوابهِ وفرحهِ بالتقرُّبِ إليهِ بمفترضاتهِ والسُّرورِ بمواعيدهِ[3]، وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ ثمرةَ الاستغفارِ والتَّوبةِ، سعةُ الرِّزقِ ورغدِ العيشِ.

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٣.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧١٣.

(3) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٩.

4) إبدالُ السيِّئاتِ حسناتٍ:

ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ منْ تابَ منَ الذُّنوبِ توبةً نصوحًا وآمنَ إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعملِ الصَّالحِ، فأولئكَ يمحُو اللهُ عنهمْ سيِّئاتهمْ ويجعلُ مكانهَا حسناتٍ؛ بسببِ توبتهمْ وندمهمْ.

قالَ تعالَى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[الفرقان: 70].

أيْ: تتبدَّلُ أفعالهمْ وأقوالهمْ السيِّئةُ تتبدَّلُ حسناتٍ، فيتبدَّلُ شركهمْ إيمانًا، ومعصيتهمْ طاعةً، وتتبدَّلُ نفسُ السيِّئاتِ التِي عملوهَا ثمَّ أحدثُوا عنْ كلِّ ذنبٍ منهَا توبةً وإنابةً وطاعةً تبدّلُ حسناتٍ[1]، وهوَ فيضٌ منْ عطاءِ اللهِ لَا مقابلَ لهُ منْ عملِ العبدِ إلَّا أنَّهُ اهتدَى ورجعَ عنِ الضَّلالِ، وثابَ إلَى حمَى اللهِ، ولاذَ بهِ بعدَ الشُّرودِ والمتاهةِ[2].

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ بابَ التَّوبةِ دائمًا مفتوحٌ، يدخلُ منهُ كلُّ منِ استيقظَ ضميرهُ، وأرادَ العودةَ والمآبَ، لَا يُصدُّ عنهُ قاصدٌ، ولَا يُغلقُ فِي وجهِ لاجئٍ، أيًا كانَ، وأيًا مَا ارتكبَ منَ الآثامِ.

وقدْ روَى مسلمٌ بسندهِ عنْ أبِي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "إنّي لأعرفُ آخرَ أهلَ النّارِ خروجًا منَ النّارِ، وآخرَ أهلِ الجنّةِ دخولًا إلَى

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٧.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٧٩.

الجنّةِ، يؤتَى برجلٍ فيقولُ: نحّوا كبارَ ذنوبهِ، وسلوهُ عنْ صغارهَا، قالَ: فيقالُ لهُ: عملتَ يومَ كذَا، كذَا وكذَا، وعملتَ يومَ كذَا، كذَا وكذَا، فيقولُ: نعمَ، لَا يستطيعُ أنْ يُنكرَ منْ ذلكَ شيئًا، فيقالُ: فإنّ لكَ بكلّ سيّئةٍ حسنةً، فيقولُ: يَا ربّ عملتُ أشياءً لَا أراهَا هاهنَا قالَ: فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بدتْ نواجذهُ[1].

5) الإمدادُ بالمطرِ وقتِ الحاجةِ إليهِ والرزق:

أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّ هودًا عليهِ السَّلامُ قالَ لقومهِ: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[هود: 52].

يقولُ سبحانهُ: فإنَّكمْ إنْ آمنتمْ باللهِ، وتبتمْ منْ كفركمْ بهِ، أرسلَ قطرَ السَّماءِ عليكمْ، يدرّ لكمُ الغيثَ فِي وقتِ حاجتكمْ إليهِ، وتحيَا بلادكمْ منَ الجدبِ والقحطِ، ورزقكمُ المالَ والولدَ[2].

قيلَ: إنَّهمْ كانُوا أصحابَ زروعٍ وبساتينَ، وعماراتٍ، حراصًا عليهَا أشدَّ الحرصِ، فكانُوا أحوجَ شيءٍ إلَى الماءِ، وكانُوا مدلينَ بمَا أوتُوا منْ هذهِ القوَّةِ والبطشِ والبأسِ، مهيَّئينَ فِي كلِّ ناحيةٍ[3].

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ منْ ثمرةِ التَّوبةِ حياةُ البلادِ منَ الجدبِ والقحطِ، وحياةِ العبادِ بزيادةِ الأموالِ والأولادِ.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب، ما أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٠٨.

(2) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.

(3) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.

ثانيًا: عاقبةُ المعرضينَ عنِ التَّوبةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ عاقبةَ المعرضينَ عنِ التَّوبةِ، والتِي منهَا:

1) عذابُ جهنَّمَ:

عرضَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى علَى منْ قتلَ أولياءهُ التَّوبةَ، وهدّدهمْ إنْ لمْ يتوبُوا بالعذابِ الشَّديدِ، فقالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ}[البروج: 10].

أي: ثمَّ لمْ يتوبُوا، أيْ لمْ يقلعُوا عمَّا فعلُوا، ويندمُوا علَى مَا أسلفُوا، (فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ) وذلكَ أنَّ الجزاءَ منْ جنسِ العملِ، قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ تعالَى: انظرُوا إلَى هذَا الكرمِ والجودِ، همْ قتلُوا أولياءهُ وأهلَ طاعتهِ، وهوَ يدعوهمْ إلَى التَّوبةِ والمغفرةِ[1].

وفِي الآيةِ تعريضٌ للمشركينَ بأنَّهمْ إنْ تابُوا وآمنُوا سلمُوا منْ عذابِ جهنَّمَ[2].

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٦٥.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٤٦.

2) استحقاقُ العقابِ:

وأخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّ علَى العبدِ أنْ يتوبَ إلىَ اللهِ تعالَى، ويخرجَ منْ حقِّ أخيهِ المسلمِ، باستحلالهِ، والاستغفارِ، والمدحِ لهُ مقابلَ ذمِّهِ، وإلَّا أصبحَ ظالمًا لنفسهِ مستحقًّا لعقابِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الحجرات: 11].

قولهُ تعالَى: (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، يقولُ تعالَى ذكرهُ: ومنْ لمْ يتبْ منْ نبزِهِ أخاهُ بمَا نهَى اللهُ عنْ نبزِهِ بهِ منَ الألقابِ، أوْ لمزِهِ إيَّاهُ، أوْ سخريتهِ منهُ، فأولئكَ همُ الذينَ ظلمُوا أنفسهمْ، فأكسبوهَا عقابَ اللهِ بركوبهمْ مَا نهاهمْ عنهُ(1).

وإذَا كانَ كلٌّ منَ السُّخريةِ واللَّمزِ والتَّنابزِ معاصٍ، فقدْ وجبتِ التَّوبةُ منهَا، فمنْ لمْ يتبْ فهوَ ظالمٌ؛ لأنَّهُ ظلمَ النَّاسَ بالاعتداءِ عليهمْ، وظلمَ نفسهُ بأنْ رضيَ لهَا عقابَ الآخرةِ معَ التمكُّنِ منَ الإقلاعِ عنْ ذلكَ، فكانَ ظلمهُ شديدًا جدًّا، فلذلكَ جيءَ لهُ بصيغةِ قصرِ الظَّالمينَ عليهمْ، كأنَّهُ لَا ظالمَ غيرهمْ؛ لعدمِ الاعتدادِ بالظالمينَ الآخرينَ فِي مقابلةِ هؤلاءِ علَى سبيلِ المبالغةِ ليزدجرُوا، والتَّوبةُ واجبةٌ منْ كلِّ ذنبٍ، وهذهِ الذُّنوبُ المذكورةُ مراتبُ، وإدمانُ الصَّغائرِ كبيرةٌ(2).

---

(1) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣٧٣.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٥٠.

3) العذابُ الأليمُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ:

دعاَ اللهُ سبحانهُ المنافقينَ الذينَ أساءُوا للرّسولِ ﷺ وحاولُوا الإضرارَ بهِ وارتدُّوا عنِ الإسلامِ أنْ يرجعُوا إلَى الإيمانِ والتَّوبةِ، فإنْ رجعُوا فهوَ خيرٌ لهمْ، وإنْ يعرضُوا، أوْ يستمرُّوا علَى حالهِمْ، يعذّبهمُ اللهُ العذابَ الموجعَ فِي الدُّنيَا علَى أيدِي المؤمنينَ، وفِي الآخرةِ بنارِ جهنَّمَ، قالَ تعالَى: {يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخرةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[التوبة: 74].

أي: وإنْ يستمرُّوا علَى طريقهمْ (يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا) أي: بالقتلِ والهمِّ والغمِّ، (وَالآخرةِ) أي: بالعذابِ والنَّكالِ والهوانِ والصَّغارِ، (وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أي: وليسَ لهمْ أحدٌ يسعدهمْ ولَا ينجدهمْ، لَا يحصّلُ لهمْ خيرًا، ولَا يدفعُ عنهمْ شرًا(1).

وفِي الآيةِ دليلٌ علَى قبولِ توبةِ الزّنديقِ المسرّ الكفرِ، المظهرِ للإيمانِ، وهوَ مذهبُ أبِي حنيفةَ والشّافعيِّ وقالَ مالكٌ: لَا تقبلُ، فإنْ جاءَ تائبًا منْ قبلِ نفسهِ قبلَ أنْ يُعثرَ عليهِ قبلتْ توبتهُ بلَا خلافٍ(2)، والإمامُ مالكٌ لَا يقْصُدُ أنَّ اللهَ لَا

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦١.

(2) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٦.

يقبلُ توبةَ المرتدِّ والمنافقِ إذَا عادَ، فهذَا غيرُ واردٍ، ولكنَّهُ يقصدُ الحدَّ، أيْ إنْ عادَ لدينهِ تائبًا لوحدهِ سقطَ عليهِ الحدُّ، وإنْ عُثرَ عليهِ أقيمَ عليهِ الحدُّ ولوْ قالَ أنَّهُ عادَ، وهذهِ المسألةُ فيهَا خلافٌ، وأنَا أرَى أنْ يخلَّى سبيلهُ فِي هذهِ الحالةِ ونوكِّلُ سريرتهُ إلَى اللهِ تعالَى، إلَّا إنْ كانَ محاربًا ذُو مكانةٍ فِي عسكرهِ ويُخشَى أنْ يكونَ كاذبًا وقالَ هذا خشيةَ الموتِ ثمَّ يعودُ فيهاجمُ المسلمينَ، أوْ كانَ كثيرَ الارتدادِ والعودِ، فهذانِ الإثنانِ إنْ عُثرَ عليهمَا قبلَ التَّوبةِ وإنْ قالَا أنَّهمَا تائبانِ، فإنَّهمَا يُقامُ عليهمَا الحدُّ وتُوكَّلُ سريرتهمَا إلَى اللهِ تعالَى، كنقيضِ حالِ الأوَّلِ الذِي ليسَ محاربًا ولَا كثيرَ الارتدادِ وعثرَ عليهِ وقالَ أنَّهُ تائبٌ فيُتركُ وتوكَّلُ سريرتهُ إلَى اللهِ تعالَى.

4) العذابُ الكبيرُ:

دعَا هودٌ عليهِ السَّلامُ قومهُ للرُّجوعِ إلَى اللهِ نادمينَ، وهدّدهمْ إنْ أعرضُوا عمّا يدعوهمْ إليهِ فسوفَ يحلُّ عليهمْ عذابٌ كبيرٌ، وهوَ يومَ القيامةِ.

قالَ تعالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٌ}[هود: 3].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: وإنْ أعرضُوا عمَّا دعوتهمْ إليهِ منْ إخلاصِ العبادةِ للهِ، وتركِ عبادةِ الآلهةِ، وامتنعُوا منِ الاستغفارِ للهِ، والتَّوبةِ إليهِ فأدبرُوا مولِّينَ عنْ ذلكَ، فإنِّي أيُّهَا القومُ أخافُ عليكمْ عذابَ يومٍ كبيرٍ شأنهُ، عظيمٌ هولهُ[1]، ووصفهُ بالكبيرِ لزيادةِ تهويلهِ[2].

(1) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٥.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٣١٩.

تمَّ المبحث والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات